تولد الغناء والشعر

كانت المرأة او الرجل قبل عصور التاريخ تكرّر كلمات التوجع عند الفجيعة وفاق لطم الوجه او اللدم على الصدر او الشهيق والزفير وهي تطيل تارة تلك الكلمات وتقصرها اخرى او تبدي تأوّهات وتنهّدات وفق ذلك اللطم واللدم او الشهيق والزفير. وهي اذا ندبت ترفع صوتها مرّة وتخفضهُ اخرى تبعاً لفوران احساساتها او خورها من كثرة اللطم واللدم. وبتخلل كلماتها او حروفها نشيج وانقطاعات قصيرة كما تفعل اليوم المرأة القروية او البدوية في بلادنا

وكذلك كان الرجل المتحمس والمرأة الجذلى يبديان احساسهما بكلمات توافق رقص الارض بالرجل مرّة او مرتين او مدّ الذراع وقبضها او قفزاتهما ووثباتهما عند الرقص او الخلسة كما يفعل اليوم المتهوّسون

وكان يشترك عند المناحات او الافراح المعقبة للانتصارات او المظاهرات الحماسية عدد من النساء والرجال معاً باعادة الكلمات التي تفوه بها النائحة او الرئيس او اعادة رقص الارض ومدّ الايدي وقبضها على نسق واحد ونظام من غير زيادة ونقصان

اما الغناء فقد تولّد من امتدادات تلك الاصوات وانقطاعاتها المتخللة اياها وارتفاعاتها وانخفاضاتها بعد ان اخذت اشكالاً معيّنة بسبب التكرار واقبال الجمهور عليها الى ان صارت كما قلّدها احد تعيد في السامعين والسامعات تلك الاحساسات

وتفرّعت تلك الاشكال بتعدد القبائل وتأصلت بالوراثة بطناً عن بطن في عصور واحقاب طويلة

والموسيقى هي الغناء نفسهُ وبعبارة اخرى هي تقليد تلك الاصوات بما يتخللها من الانقطاعات وما لها من الارتفاعات والانخفاضات بواسطة الاوتار او غيرها وجعل سلّم منها لها . وكأن العود التي يوقع على اوتارها لحن موسيقي يذكّر السامع بشكاة من الآلام قد ورثها البشر من اسلافهم الاقدمين فهو وان لم يتذكر الالفاظ يتحسس بوزانها ورفع اصواتها وخفضها

واما الشعر فتولد من تلك الاصوات والانقطاعات التي تتخللها باعادتها او زيادة مقطع عليها او حذفه او تبديل مقطع بآخر بالفاظ تدل على احساسات جديدة ومعان تريدها النائحة او المتحمس تشعران بتلك الاحساسات القديمة ففيها احساسان

الاول هو الموروث عن الاجداد باثارة الاوزان لها والثاني هو الحادث باثارة ما تدل عليه الالفاظ من المعاني ولذلك كان يفضل الغناء المجرد من الالفاظ . ولما كان في الغناء تفصيل لتلك الاصوات والانقطاعات وتمثيل لارتفاعاتها وانخفاضاتها ليس في الشعر قرنوا بينهما فتضاعف تأثير كل منهما بسبب الآخر وهما على كل حالة شقيقان قد تولدا من احساس واحد

فالشعر في اصله كلة تنطق بها المفجوعة مكرّرة اياها وهي تلطم وجهها او تدمم صدرها كما اذا قالت « ويلي ويلي » او « اومِ اومِ » بفترات قصيرة او قالت « قد ماتوا قد ماتوا » او « يا ويلتا يا ويلتا » او « ابن اهلي ابن اهلي » او « لقد هلكوا لقد هلكوا » الى غير ذلك من الكلمات التي يكررها المفجوع . ثم تقدموا فيه فاخذوا يؤلفونهُ من تفاعيل ثلاثة او اربعة ثم جعلوا يغيّرون بعض تلك الكلمات مع المحافظة على الوزان ثم جعلوا يؤلفون بين الكلمات من وزانين مختلفين

وقد كان الشعر في اوله شطراً واحداً ثم جعلوهُ شطرين متطابقين في وزان الكلمات مع تكرار الكلمة الاخيرة ثم جعلوهُ عدة ابيات موافقة لاول شطر من غير اعادة شيء من الكلمات الا الرويّ الذي هو بمثابة عضو اثري للكلمة التي كانوا يعيدونها وهذا النوع هو القصيد . ونرى مما ذكرت ان الشعر مثل الاحياء قد مشى على سنن الارتقاء من البسيط الى المركب

وقد تفننوا في الاوزان فولّدوا من بحر او بحرين بسيطين بحوراً كثيرة . والبحور البسيطة هي التي تفاعيلها على وزان واحد كالمتدارك والمتقارب . والمركبة هي التي تفاعيلها على وزانين كالطويل والخفيف . والقسم الاول اقدم من الثاني لبساطته

وقد ظن الكثيرون ان للاوزان حقيقة في الخارج فجعلوا يتساءلون عن كيفية العثور عليها وهذا خطأ فان الوزن هو هذا الذي يقولهُ الموتور او المتحمس عند ثورة احساساته ويكرّرهُ فاذا كان شديد التأثير وهو لا يكون مؤثراً الا اذا تألف من عدة تفاعيل متناسقة شاع وغنّى به غيرهُ فكان وزناً من الاوزان

ومثل هذا ما تقولهُ النائحات اليوم من الكلمات التي تكررها لاثارة الحزن او المتحمس لاثارة الشجاعة وهو ما نسمّيه « الهوسة » . وليس لهذه الاوزان حد لتكون ستة عشر بحراً بل الابحر الستة عشر هي الاوزان التي سمعت من عرب الجاهلية

وقد اتى بعض المولّدين باوزان اهملها العرب منها ما اجزاؤهُ مفاعيلن فعولن مرتين لكل شطر وهو عكس الطويل كقوله

لقد هاج اشتياقي غرير الطرف احورْ
ادير الصدغ منهُ على مسك وعنبرْ

ومنها ما اجزاؤهُ فاعلن فاعلاتن مرتين لكل شطر وهو مقلوب المديد كقوله

صاد قلبي غزال احور ذو دلال كلما زدت حبًّا زاد مني نفورا

ومنها ما اجزاؤهُ فاعلاتن مفاعيلن مفاعيلن لكل شطر كقوله

من بحيري من الاشجاب والكرْب من مديلي من الابعاد بالقرب

ولعرب البادية وقبيلة المعوان وغيرهم اليوم اوزان ليست شيئاً من بحور الخليل وهي مع ذلك جميلة في الغالب . كقول بعض النائحات

دحجّتْ لنّ الكَبُرْ كامه لنّ الاخدْ ضيّج منامه تلوذ بعلى ذبح الجهامه

« دحجّتْ » نظرت « لنّ » واذا « الكَبُرْ » القبر « كامه » قامة « ذبح » تلك « الجهامه » الصورة . واجزاؤه لكل شطر مستفعلن مستفعلن لن

وقول بعضهن

مكلت لج يا يمّه على الرحى عيني
مدرى الرحيّة نجيله لولا العشج رامني

« مكلت لج » اما قلت لك « يامه » يا اماه « مدرى » ما ادرى « الرحيّة » الرحى « نجيله » ثقيلة « لولا » ام « العشج » العشق . واجزاؤهُ مفاعلن مفعولن او مستفعلن مفعولن لكل شطر

وكقول احد شعراء البادية من قصيدة

ياما حدينا هم وياما حدونه
ياما سجيناهم وياما سجونه
لاجنّنا اصبح من لواشجونه
ولا مثلنا يوجد على الموت صبّار

«سجونه» سقونا « لا جنّنا» لكنّنا « الواشجونه » المشهون لنا. واجزاؤه مفعلن مستفعلن فاعلاتن لكل شطر. اما الواو في « ولا مثلنا » فهي ساكنة يجوز للغناء بها في لغة العامة والبدو من غير ان يختلّ الوزن . الى غير ذلك من اوزان ابتدعوها بانفسهم فهم اكثر اختراعاً من شعراء اللغة الفصحى

واخال ان عرب الجاهلية قد قرضوا الشعر على اوزان كثيرة غير ان اكثرها ماتت لعدم ملاءمتها لاذواق الشعوب يومئذ فلم تقوَ على تنازع البقاء ولا طمع في ان نجد جثثها المتحجرة في طيات التاريخ . ولم يبق حيًّا ينشد او ينسج على منواله الا البحور الستة عشر

وكانوا لا يقسمون الشعر الاّ من حيث قلة اجزائه او كثرتها او قصر الابيات وطولها فيسمون القصير رجزاً والطويل قصيداً قال احدهم «أرجزاً تطلب ام قصيداً» (ليس المقصود من الرجز هنا البحر المعين)

وارى ان لكل شاعر اليوم ان ينظم على اوزان يخترعها غير مرتبط باوزان الخليل بشرط ان تكون خفيفة على السمع كما اذا اتى لكل شطر بالفاظ على وزان فعولن فعلن او مفاعيلن فعولن او مستفعلن لن فعولن او فعولن مستفعلن لن او فعلن مستفعلن فعلن او فاعلن فعلن او مفاعيلن فاعلاتن فعلن الى غير ذلك .

واوزان الخليل البسيطة هي التي تتكرر تفاعيلها متشابهة في كل شطر كما في المتدارك والمتقارب والكامل والوافر والهزج والرجز والرمل. والاوزان المركبة هي التي تختلف فيها التفاعيل كأن تتألف من عددين مختلفين منها كما في الطويل والبسيط والمديد والسريع والمنسرح والخفيف والمضارع والمقتضب والمجتث. وهذه ارقى من الاولى وارقى الجميع هي الاوزان التي يتركب كل شطر منها من ثلاثة تفاعيل مختلفة مع توافق في الشطرين او زيادة مقطع في آخر الشطر الثاني او حذفه فيكون التكرار المطلوب من تفاعيل الشعر باعادتها في الشطر الثاني وفاق الشطر الاول

والرويّ هو علامة التكرار كأنهُ نصّ عليهِ وقد كان في اصله تكراراً للكلمة الاخيرة من كل بيت ولكن التفنن في الكلام والاقتصاد في المعنى جعلا مع الزمان لا يتكرر من الكلمة الاخيرة الاّ آخر حرف منها فهو عضو اثري سوف يزول في المستقبل فيكتفى بتوافق وزان الكلمات الاخيرة في القصيدة من غير اعادة الحرف الاخير

وقد بدأ كثير من شعراء العصر يغيّر القافية بعد كل بضعة ابيات كأن نفوسهم سئمت الخلاخيل في ارجل غانيات الشعر فجرّدوها منها

وفي عدم تسمية عرب الجاهلية للاوزان التي كانوا ينظمون عليها شعرهم دليل على انها لم تكن لديهم محدودة كما هي لدينا اليوم

جميل صدقي الزهاوي